إسرائيل: صعود الإسلام السياسيّ نذيرُ شرٍّ قد يعوّضُه تفكّكُ «محور الشرّ»!

□ أنطوان شلحت

تتّفق القراءات الإسرائيليّة المتعدّدة على أنّ التغييرات التي سوف تترتّب على «الربيع العربيّ» لم تصلْ إلى خاتمتها. وتتّفق أيضًا على مآلٍ واحدٍ لهذا «الربيع،» فحواه أنّ المرحلةَ الحاليّة أسفرتْ عن تعزّز قوّةِ الحركات الإسلاميّة، وأنّ هذا التعزّزَ المقترن بتراجع مكانة الولايات المتحدة كدولة عظمى قد يحملُ نُذر شرٍّ مستطيرٍ على إسرائيل، لا يعوّضه سوى تفكّك «محور الشرّ» من خلال سقوط النظام السوريّ واندلاع انتفاضةٍ قويّةٍ في إيران.

وواقع الأمر أنّ نُذرَ الشرّ التي تتناولها هذه القراءاتُ لا تتأتّى من توقّع أنْ يؤدّي صعودُ الحركات الإسلاميّة إلى وقف احتمالات تطبيع العلاقاتِ الإسرائيليّة ــ العربيّة، وإلى تبدّد إمكان نسج علاقات ذات صبغة إستراتيجيّة مع دول مؤثّرة في المنطقة وحسب، وإنّما تتأتّى أيضًا من سقوط أنظمةٍ عربيّةٍ محدّدة. وقد عبّرَ عن ذلك أحدُ كبار الباحثين في معهدِ دراسات الأمن القوميّ في جامعة تل أبيب، مارك هيلر، بتأكيده أنّ حسني مبارك كان يرى أنّ مصالحَ مصر القوميّةَ تستوجبُ السلامَ مع إسرائيل،

ـ الإســـلام الســـياســـي ـ

عاموس يادلين: الرابح الأكبر لوقائع العام الأخير هو الإسلامُ السياسيُّ في تونس وليبيا ومصر وسورية (في المستقبل)، والسُنّةُ هم الرابحُ الأكبرُ من اليقظة العربيّة، فضلاً عن تركيا.

ومواجهةَ الإسلاميين المتطرّفين، وقمعَ «الإرهابيّين،» والتنسيقَ الوثيقَ مع الولايات المتّحدة.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنّ موضوعَ الانشغال بمصر ما بعد مبارك طغى على جدول الأعمال الإسرائيليّ قبيل انطلاق «الربيع،» ولا سيّما إثر ذيوع أنباءٍ عن وقوعه في براثن مرضٍ خبيث. وفي تعليقٍ لكبير المحلّلين السياسيّين في **هآرتس**، ألوف بن، وَرَدَ على لسان مصدرٍ سياسيٍّ إسرائيليٍّ رفيع أنّ مبارك أقربُ إلى رئيس الحكومة الإسرائيليّة بنيامين نتنياهو من زعماء العالم كلّهم، وأنّ العلاقات بينهما أوثق ممّا يتراءى في الظاهر. وذكرتْ تعليقاتٌ أخرى أنّ هذه العلاقات الوثيقةَ ناجمةٌ عن الخشية المشتركة من إيران؛ ذلك أنّ نتنياهو يخشى المشروعَ النوويَّ الإيرانيّ، في حين يخشى مبارك ممارساتِ طهران التآمريّة. كما أشارت إلى أنّ إسرائيلَ ومصر تعملان لتطبيق الحصار على غزّة بهدف إضعاف «حماس» هناك، ولإحباط تهريب الأسلحة إليها. وأشيرَ كذلك إلى أنّ إسرائيل أصبحتْ تعتبرُ مصر الحليفَ الأهمَّ في المنطقة بعد سقوط الشاه، ومصدرَ الطاقة أيضًا، وأنّ معاهدة السلام معها صمدتْ في اختبارات الانتفاضتين الفلسطينيّتين وجميع الحروب التي شهدتها المنطقةُ. وكتب أحدُ الباحثين الإسرائيليّين في أيّار ٢٠١٠: «لا شكَّ في أنّ الرئيس [مبارك] الذي يتولّى زعامة مصر على مدار فترةٍ زمنيّةٍ طويلة... هو المسؤولُ المباشرُ عن استقرار الأوضاع فيها. غير أنّه أصبح في الـ ٨٢ من عمره، ولا يعرفُ أحدٌ كم سنةً سيبقى في السلطة، ومَن الذي سيخلفه. ولو كان في إمكان إسرائيل اختيارُ أمنيةٍ واحدةٍ لكانت ستختار أن يعيشَ مبارك إلى الأبد شرط أن يبقى معنا» (**هآرتس**، ٢٠١٠/٥/١٦).

علينا أن نشير أيضًا إلى قراءات إسرائيليّة ربطتْ بين «الربيع» وبين نزعاتٍ إقليميّةٍ سابقة اعتُبرتْ خطرًا على إسرائيل، أهمُّها تراجعُ نفوذ الدول العربيّة والولايات المتحدة في مقابل صعود نفوذ تركيا وإيران. ونشير أيضًا إلى أنّ التعاملَ الإسرائيليّ مع التغيّرات في الشرق الأوسط خضع لتحوّلاتٍ تبدو متناقضةً: ففي حين كان متوتّرًا ويلامس حدودَ الهلع بسبب ثورة مصر، فإنّ بلوغَ «الربيع» دولاً أخرى مثل ليبيا واليمن وسورية أثار «تفاؤلاً» من أن يعوِّضَ إضعافُ (أو سقوطُ) أنظمةٍ مناهضةٍ لإسرائيل من الإحباط الذي شعرتْ به هذه الأخيرةُ جرّاء إضعاف (أو إسقاط) أنظمةٍ مريحةٍ لها؛ بل إنّ هذا التعويض سيكون كبيرًا جدًّا في حال إيقاظ الدوافع التي أدّت إلى «انتفاضة» في إيران سنة ٢٠٠٩، شرط أن تكونَ هذه المرّة أكثرَ قوّةً واتساعًا بحيث تفضي إلى ضعضعة النظام هناك.

وفي ما يخصُّ صعودَ الحركات الإسلاميّة تحديدًا تتراءى الرؤيةُ الإسرائيليّة المتراكمة إلى الآن على الوجه التالي:

ـ يؤكّد عاموس يادلين، رئيسُ معهد دراسات الأمن القوميّ في جامعة تل أبيب، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكريّة في الجيش الإسرائيليّ سابقًا، أنّ الرابحَ الأكبر لوقائع العام الأخير هو الإسلامُ السياسيُّ في تونس وليبيا ومصر وسورية (في المستقبل)، وأنّ السُنّةَ هم الرابحُ الأكبرُ من اليقظة العربيّة، فضلاً عن تركيا، وأنّ عصرَ صعود الشيعة في الشرق الأوسط قد كُبح في هذه المرحلة كما يبدو. أمّا الخاسرون فهم الحكّامُ الذين أطيح بهم، والولاياتُ المتّحدة التي فقدتْ حليفين مهمّين في مصرَ وتونس؛ كما أنّ انعدامَ الاستقرار في ليبيا واليمن قد يعزّزُ من نفوذ تنظيم «القاعدة.» وتبدو إسرائيلُ أيضًا في الجانب الخاسر، رغم أنّ الأسوأ ما يزال في انتظارها: نظامَ حكمٍ جديدًا في مصر، وربّما حدوثَ تغييرٍ في الأردن، واستمرار العصيان المدنيِّ في سورية، وشلالَ التوقّعات على الحدود مع إسرائيل. وفي ما يتعلّق بإيران يشير يادلين إلى أنّها بدت في أول العمليّة راضيةً عن سقوط أنظمةٍ متعاطفةٍ مع الغرب ومتحالفةٍ مع إسرائيل، وراضيةً عن تعزيز العناصر الإسلاميّة في المغرب ومصر، وعن اليقظة الشيعيّة في البحرين؛ لكنّ تغيّر شعورُها ما إنْ تبيّن أنّ سورية، حليفَها المركزيّ في العالم العربيّ، هي أيضًا بين المتضرّرين من الأحداث، وأنّ السعودية والمعسكر السنيَّ يعزّزان قوّتهما، وأنّ الهزّة قد تصلُ إلى طهران.

ـ يرى إفرايم عنبار، رئيسُ مركز بيغن - السادات للدراسات

الإستراتيجيّة في جامعة بار إيلان، أنّ صعودَ الحركات الإسلاميّة وتراجعَ الولايات المتّحدة في الشرق الأوسط يؤثّران سلبًا في «عمليّة السلام التاريخيّة» بين إسرائيل والأطراف المجاورة لها.

ـ في مواجهة مساعي الولايات المتّحدة وأوروبا الغربيّة إلى الحوار مع الإخوان المسلمين وحركاتٍ إسلاميّةٍ أخرى، يستصعب داني روتشيلد، رئيسُ مؤتمر هيرتسيليا لميزان المناعة والأمن القوميّ في إسرائيل، فهمَ كيف يمكن أحدًا أن يتوقّعَ من حركاتٍ ثيولوجيّةٍ انبثقتْ في كنفها شبكاتٌ «إرهابيّة» أن تدفعَ التطوّرَ في العالم العربيّ. بل يؤكّد أنّ وصولَ الأحزاب الإسلاميّة إلى الحكم سيجعلها تَجهد للحفاظ على سلطتها ومكاسبها، فتقمع بلا هوادةٍ أيَّ معارضةٍ شعبيّة. ومن هنا فإنّ دولَ الغرب، بحوارها معها، وبشرعنة نشاطها، تعيدُ المنطقةَ إلى الوراء، وتمكّن هذه الحركات من تعميق وجودها ونفوذها في الجاليات الإسلاميّة في الغرب.

ـ تتوقّع ميرا تسوريف، وهي باحثة كبيرة في مركز موشيه دايان للدراسات الشرق أوسطيّة والإفريقيّة في جامعة تل أبيب، أن تتبنّى حركةُ الإخوان المسلمين في مصر سياسةً براغماتيّةً تختلف كثيرًا عن سياسة السلفيّين. وهو تقديرٌ يتبنّاه أيضًا المحلّلُ العسكريّ رون بن يشاي، مشيرًا إلى أنّ الإخوان المسلمين في مصر وتونس والأردن يمثّلون «إسلامًا هجينًا» يجمع بين الهويّة الوطنيّة - الاجتماعيّة وبين الهويّة الإسلاميّة، بخلاف الحركات الجهاديّة كتنظيم القاعدة وحركة الجهاد الإسلاميّ في فلسطين. وفي رأيه أنّ الإخوان المسلمين يولون أهميّةً كبيرةً للرفاهية الاقتصاديّة والاجتماعيّة لشعوبهم، وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد أنّهم سينتهجون سياسةً براغماتيّةً، وسيحاولون تمييزَ أنفسهم عن «السلفيّين» الأصوليين. صحيح أنهم لن يحبّوا إسرائيل، لكنّهم سيحاذرون إلغاءَ معاهدة السلام، وسيمتنعون عن الدخول في حربٍ واسعةٍ تُدخل شعوبهم في ضائقة. وينطبق هذا الكلامُ أيضاً على النظام الذي سيحلّ في سورية محلَّ نظام الأسد. وفي المقابل يرى الباحث مارك هيلر أنّ البراغماتيّة النسبيّة للحركات الإسلاميّة قد تكون مجرّد ضريبةٍ كلاميّةٍ لاسترضاء جمهورٍ معيّنٍ في الداخل المصريّ أو جماهير وحكوماتٍ خارجيّةٍ خاصّة.

ـ يؤكّد يحزقئيل درور، أستاذُ العلوم السياسيّة في الجامعة العبريّة (القدس) وعضوُ لجنة فينوغراد التي تقصّت وقائع حرب لبنان الثانية، ازديادَ الدور الذي يقوم به الشارعُ العربيّ، وتصاعدَ العداء لإسرائيل. كما أنّ الارتفاعَ الكبير في الطاقة القوميّة، وتزايدَ الصعوبات الداخليّة، سيدفعان الناس إلى البحث عن عدوٍّ خارجيّ، وستكون لذلك انعكاساتٌ مهمّةٌ على إسرائيل، مثل تآكل قدرتها على الردع، والتخوّف من مبادراتٍ «غير عقلانيّة» للهجوم عليها.

وهكذا نرى أنّ الحيّزَ الأكبر من الانشغال الإسرائيليّ بصعود الإسلام السياسيّ يحتلّه الهاجسُ المتعلّقُ بما يتعيّنُ على إسرائيل أن تفعلَ من الآن فصاعدًا. ويمكن إجمالُ اتّجاهات العمل الرئيسة على الوجه الآتي:

١- على إسرائيل أن توظّفَ كلَّ الجهود من أجل تعميق تحالفها مع الولايات المتّحدة، وخصوصًا من خلال توكيد أنّ «الربيع العربيّ» أثبت ما تمثّله إسرائيلُ من ذخرٍ إستراتيجيٍّ لها وللغرب عمومًا.

٢- تطوير عقيدةٍ عسكريّةٍ جديدةٍ تتضمّن عناصرَ هجوميّةً معدّةً للاستخدام عند الحاجة.

٣- اتّخاذ مزيدٍ من الإجراءات الرامية إلى تحصين الحدود، على غرار الجدارِ العازل الذي بدأتْ إسرائيل بإنشائه على طول الحدود مع مصر، وفي جزءٍ من الحدود مع لبنان، فضلاً عن الجدران في مناطق الحدود مع قطاع غزّة وسورية والأردن والضفة الغربيّة. وبرأي الباحث العسكريّ غابي سيفوني، فإنّ الجهود ينبغي أنْ تتركّزَ على تعيين مكامن الضعف على امتداد الحدود، وإيجاد الحلول لمعالجتها، ودراسة مفهومٍ شاملٍ للدفاع عن الحدود مع الدول التي تربطها بإسرائيل معاهداتُ سلام.

٤- زيادةَ الميزانيّة الأمنيّة الإسرائيليّة، لأنّ إسرائيل لا يمكنها لضمان مستقبلها سوى أن تعتمدَ على نفسها. وبمراجعة آخر الخطابات التي ألقاها نتنياهو نلاحظ أنّ هذا التشديدَ أصبح لازمةً متكرّرةً فيها. فقد أكّد مثلاً في الخطاب الذي ألقاه في آذار ٢٠١٢ (إيباك) في واشنطن ما يأتي: «إننا نقدّرُ جدًّا التحالفَ العظيم بين بلدَيْنا [إسرائيل والولايات المتّحدة]، لكنْ عندما يتعلّقُ الأمر بمسألة بقاء إسرائيل يجب علينا أن نكونَ دومًا أسيادَ مصيرنا.»

٥- ضرورة تعزيز الاتصالات مع السعوديّة. وبحسب ما نُشر في هذا الشأن، بدأت السعودية رويدًا رويدًا تحلُّ محلَّ مصر في زعامة «المعسكر المعتدل» في العالم العربيّ بسبب انشغال هذه الأخيرة بأوضاعها الداخليّة. وهذا الأمر ينعكس في إبراز السعوديّة تحالفَها الوثيقَ مع الإدارة الأميركيّة، وفي تقديمها المساعدات إلى القوى التي تحاول أن تكبحَ تغلغلَ النفوذ الإيرانيّ في المنطقة. فالاستخباراتُ السعوديّة هي التي كشفتْ مسارَ تهريب الأسلحة من إيران إلى نظام الأسد عبر العراق، ونقلتْ هذه المعلومات إلى أجهزة الاستخبارات الأميركيّة؛ وكانت السعوديّة أوّلَ دولةٍ عربيّةٍ تغلق سفارتها في دمشق؛ وفي الرياض أيضًا تجري عمليّةُ بحثٍ عن وريثٍ محتملٍ للأسد.

ووفقًا لما كتبه غيرُ محلّلٍ إسرائيليّ في الآونة الأخيرة، فإنّ موقفَ السعودية من إيران شبيهٌ إلى حدٍّ بعيدٍ بموقف إسرائيل. ولذا يمكن التقدير أنّ هذا الأمر أدّى إلى مزيدٍ من التقارب بين الدولتين، وعزّز أكثر فأكثر الاتصالات غيرَ الرسميّة التي تجري بينهما بعيدًا عن الأنظار.

عكّا (فلسطين)

أنطوان شلحت
كاتب وباحث فلسطينيّ.